



نفت وزارة الدفاع الروسية، يوم 27 يونيو/ حزيران الجاري، انسحابها من اتفاقية منطقة خفض التصعيد في جنوب سوريا. وفي اليوم نفسه، قال سفير روسيا الدائم لدى الأمم المتحدة، فاسيلي نيبيزيا، في إفادة أمام مجلس الأمن "إن العمليات العسكرية في تلك المنطقة لا يمكن إيقافها"، وقد جاء الموقف الروسي ردًا على مطالبات فرنسية وبريطانية بإيقاف العمليات التي كان مضى عليها يومذاك أسبوع. ولا تجد موسكو حرجاً في عمليات التدليس هذه، إذ ترى فيها ضرباً من البراعة السياسية والدبلوماسية، وفرصة أخرى للاستهانة بالعقل والتلاغب بالوقائع.

وقد ترافق المونديال الروسي في جنوب سوريا مع المونديال الرياضي الدولي الذي تستضيفه روسيا. ولا شك أن صانعي القرارات في موسكو رأوا اختيار هذا التوقيت لتصفية المعارضة، و"تطهير" البيئة الشعبية الحاضنة، مثاليًا، علاوة على انشغال الجار التركي بالانتخابات الرئاسية والبرلمانية وما بعدها، فيما تنشغل واشنطن بتسويق صفقتها الشرق أوسطية، وهي الصفقة التي تدلل على التصاقِ أميركي متماضٍ بالاحتلال ومصالحه. وعلى مستوىً موازي، فإن لعبة اللجنة الدستورية التي ينغمس فيها المبعوث الأممي، ستيفان دي ميستورا، تكفل بصرف الأنظار عما يجري على أرض الجنوب السوري، وفي أجواءه.

وقد تميز الأداء الروسي كالعادة بقصف المراكز الطبية، وإخراجها عن الخدمة، وتشريد 45 ألفاً من أبناء المنطقة، وتعتبر هذه النتائج "روتينية"، إذ إنها تتلازم بصورة دائمة مع الجهد العسكري الروسي الجبار الذي يستهدف، على الدوام، المدنيين والمراقب المدني، وخصوصاً مراكز الإغاثة والدفاع المدني والأسواق الشعبية وتجمعات النازحين. وقامت القوات الروسية (ومركز المصالحات!) بتمكين مليشيات شيعية تتبع إيران، منها لواء ذو الفقار من اقتحام المنطقة، وخوض جهادها المقدس هناك ضد المدنيين، وضد المعارضة. بينما ترك النشاط العسكري الروسي على أداء القاذفات المقاتلة وإطلاق

الصواريخ. وعلى الرغم من التصريحات الروسية عن سحب القوات الأجنبية، إلا أن موسكو، وكما يدل سلوكها، ترى أن الحاجة لوجود المليشيات، اللبنانيّة والعربيّة والأفغانية والباكستانية التي تتبع إيران، لم تستنفذ بعد، فضلاً عن أنه لا بد من اللعب بورقة الوجود الإيراني في المساومات مع أطراف دوليّة وإقليميّة عدّة، لتحقيق أكبر قدر من المكاسب، ولتقليل عدد الأكثريّة السوريّة السنّيّة، ففي السياسة، يجب مراكمه نقاط الفوز، وممارسة البيع والشراء بذكاء.

وهكذا، فيما يتبع العالم، بما فيه الشعوب العربيّة، بشغف، مونديال كرة القدم في روسيا، فقد كان هذا البلد المضييف يقتتنص فرصة الانشغال بالمبادرات، ويقيم مونديالاً آخر في جنوب سوريا، ذا طبيعة عسكريّة وسياسيّة، وبممارسة كل ما يتيسر من جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية ضد شعبٍ فاقٍ نكبته كل الحدود والتصورات. وقد ذهبت تحذيرات واشنطن لموسكو أدراج الرياح، لأنها في الأصل كلماتٍ في الهواء، ومثلها دعوات أوروبية لموسكو باحترام الاتفاقيات، ذلك أنه بالنسبة لموسكو يكفي الالتزام اللفظي والدعائي بالاتفاقيات، دونما حاجة للالتزام فعلي بها.

ولا شك أن موسكو سعيدة بانعدام ردود الفعل الشعبيّة العربيّة على مونديال جنوب سوريا، وربما توقعت ذلك، فمشاهد الطعام والأنقاض باتت مألوفة، وجثث أطفال درعاً ملّاقة تحت الأشجار لا تستوقف أحداً، وتخلو من كل جانبية مقارنة بأهداف الدقائق الأخيرة في مونديال كرة القدم، الأمر الذي قد يجعل موسكو تصوغ سياساتها في المنطقة استناداً إلى فراغٍ عربيٍ، وإلى توافق منظومة أحزابٍ ومنظماتٍ يسارية وعلمانيّة عربية معها.

وبينما تمثل الحملة على الجنوب السوري امتداداً للحملات العسكريّة السابقة التي تؤدي، على الدوام وبانتظام، إلى تقويض أكبر قطاعاتٍ من الأحياء السكنية، واقتلاع آلاف المدنيّين، ودفعهم إلى النزوح إلى العراء، فإن الحملة على الجنوب السوري ترتدى خطورةً مضاعفةً، إذ تشكّل تحدياً للبلد الجار الأردن الذي لم يعد يملك طاقة استيعاب مزيدٍ من اللاجئين من هجرهم النظام و"داعش" وميليشيات إيران وروسيا، وهي مشكلة لا تستوقف موسكو التي لا ترى مانعاً منبقاء المشردين في العراء. بينما تبرز مشكلة أخرى، وهي أن تقدُّم قوات النظام السوري إلى الحدود مع الأردن يحمل مخاطر تمكين ميليشيات إيران من الوقوف قرب المناطق الحدودية، وقد تواترت الأنباء، قبل بداية الحملة الجديدة، أن ميليشيات إيران، بما فيها حزب الله، باتت ترتدى ملابس الجنود النظاميين. وتسعى طهران، منذ سنوات، إلى التسلل إلى الأردن، من أبواب شتى، كعرض تصدير أسلحة أو القيام بسياحة دينية - أو دعوة ناشطين إلى طهران، أو عرض القيام باستثمارات، وذلك بهدف التسلل إلى المجتمع، كما فعلت مع دول عديدة في المنطقة. وعلى الرغم من العلاقات الجيدة التي تربط عمّان بموسكو، فإن الأخيرة تبدو مندفعاً في حساباتها الخاصة للسيطرة على الموقع السوري، والاستعانة في المرحلة المنظورة بميليشيات إيران، إلى أن تنتفي الحاجة لهذه الميليشيات، وعندها يتم الطلب بانسحاب القوات التركية والأميركيّة والإيرانيّة معاً.

أما الصديقة الأخرى للأردن، وهي الولايات المتحدة، فهي لا تجد ما تفعله سوى سحب اليد من هذه التطورات. والراجح أن صفقة القرن تمتد إلى الجنوب السوري، فحين يتم ضمان أمن الاحتلال الإسرائيلي من روسيا وحلفائها، فإنه لا شيء بعدئذ يثير قلق واشنطن، حتى لو توقفت الحرب في تلك الأناء على تنظيم داعش الإرهابي، وحتى لو واصلت ميليشيات إيران تمددّها (بغطاء جوي روسي)، متّعة سياسية الأرض المحروقة، هنا وهناك على الأرض السورية.

مونديال جنوب سوريا متواصل، وتسعى موسكو إلى حسمه مع انتهاء مونديال كأس العالم لكرة القدم، مع فارق أن لا حكام في الأول، ولا قوانين تحكم اللعبة الدموية، والمتفرجون، دولاً وشعوباً شقيقة، يديرون ظهورهم لمشهد الكوارث النازلة تباعاً بكل مظاهر الحياة والعمaran في منطقة حوران. وبهذه الكوارث، تضيف موسكو انتصاراً جديداً لسلسلة انتصاراتها على جورجيا وأوكرانيا وشبه جزيرة القرم، وتهيئ للقاء قمة بين الرئيسين فلاديمير بوتين ودونالد ترامب، على وقع الفصل الجديد من هذه الانتصارات البهية على الشعوب.

المصادر:

العربي الجديد